

الأنساق المضمرة لاغتراب الذات وتشظيها في رواية اختفاء السيد لا أحد لأحمد طيباوي .

The Implicit Patterns of Self–Alienation and Fragmentation in the Novel «The Disappearance of Mr. Nobody» by Ahmed Taibaoui

عايب فاطمة الزهراء، المركز الجامعي سي الحواس بركة، الجزائر،

Fatma.ayeb@cu-barika.dz

تاريخ قبول المقال: 18-11-2025

تاريخ إرسال المقال: 10-08-2025

ملخص:

تعد الرواية الجزائرية المعاصرة جنسا أدبيا متميزا شهدت تحولات عدة في تبنيها مواضيع تهّم جوهر الإنسان وتقيم فلسفات تتمحور حول الأزمات، فكان التشظي والاعتراب أكثر المواضيع جرأة في خوض غمار محاورة الذات ومعالجة ما تعانیه واقعيًا، وانطلاقًا من ذلك كان اختيار رواية اختفاء السيد لا أحد لأحمد طيباوي سبيلنا لتتبع الأنساق المضمرة لاغتراب الذات وتشظيها لما للغتها السردية من حمولات تستدعي التساؤلات عن مصير الإنسان المغترّب، وما يحيط به من أزمات في ظل صراعات تطرح رؤى لإيجاد الحلول ومعالجة التناقضات، وهذا ما سنحاول محاورته وفق شق نظري وآخر تطبيقي للمتن السردية .

الكلمات المفتاحية : الذات، الاعتراب، التشظي، الرواية الجزائرية.

Abstract :

Themes concerning the essence of The contemporary Algerian novel is a distinctive literary genre that has undergone several transformation in its adoption of – tanding out as some of the boldest topics exploring self with fragmentation and alienation s, it presents philosophies centered on crises the human being , Nobody by Ahmed Taibaoui as a means to trace the implicit we chose The Disappearance of Mr, Based on this .life suffering – dialogue and addressing real given its narrative language loaded with meanings that provoke questions about the fate of the alienated , alienation and fragmentation – patterns of self .

both This study will address the topic through .individual and the crises surrounding him amidst conflicts that propose visions for resolving contradictions . text theoretical and applied approaches to the narrative.

Keywords: Self, alienation., fragmentation, Algerian novel.

مقدمة:

تعدّ الرواية الجزائرية المعاصرة خزاناً دلالياً تتضافر فيه جملة شحنات نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية وغيره مشكلة نسيجاً لغوياً محكماً تسيّره جملة فنيات لغوية تستقطب المتلقي وتجذبه، وقد تنوّعت القضايا المتناولة محاولة نقل هموم الواقع بشحن الخيال وتقمص الشخصيات لأدوارها ضمن حيز سردي تؤثته اللغة الفنية البارعة في نقل الأحداث ومعالجتها وبرزت أقلام شبابية ترسم عالمها الروائي بحنكة وبارعة، ومن بينهم الروائي أحمد طيباوي الذي اخترنا روايته اختفاء السيد لا أحد محاولين تتبع قضاياها الشائكة في فضاء مكتنز دلالياً يرسم معاناة الإنسان وغربته وتشظيه، وهو يحاول البحث عن ذاته الضائعة في مجتمع يسوده الظلم والنفاق، فتتضارب القيم وتتيه الذات وتغترب وسط تساؤلات بين ماض وحاضر ومستقبل مبهم فهل تمكنت الرواية استكشاف بواطن الذات في غربتها وتشظيها ؟ وهل استطاعت معالجة القضايا المطروحة بعقلانية مقنعة لجذب القارئ ؟ ما مدى تقاطع الذات في عذاباتها مع شرائح المجتمع المتعددة ؟ وما مصير المثقف المتأزم في ضياعه أمام ما يعانيه من تهميش وإقصاء ؟ إن هذه التساؤلات كانت جوهرها هاماً لتحريك دافع البحث نظرياً عن مفهوم الذات والتشظي واللاغتراب وصولاً لقراءة الرواية وفق الأنساق الثقافية التي تتمحور حول المضمّر وما يكتنزه دلالياً.

يهدف المقال لتقصي جملة من المفاهيم المتعلقة بتشظي الذات واللاغتراب وهي محركات تم اعتمادها في الرواية الجزائرية المعاصرة في محاولة للتقرب من القضايا التي يعانيها الإنسان في حياته الواقعية ما يجعله يعيش حالة من الضياع والتهيه مثل أزمة المثقف وقضية الفساد وعقوق الوالدين وغيره، وهذا ما سنحاول معالجته نظرياً ثم ننتقل لتتبع مضمرات الرواية في

بعض من مقاطعها، وقد كانت الأنساق المضمرة سبيلنا للتقصي عن خفايا الدلالات ورسائلها المبطنة.

المبحث الأول: تأملات نظرية في المفاهيم وتداخلاتها:

المطلب الأول في مفهوم الذات وتداخلاتها:

إن أصعب ما يواجهنا هو محاورة الذات فمخاطبة مكنوناتها وما تختزنه من رؤى وصراعات تشكّل نبشا لتجارب وحصيلة وقائع معاشة، وعليه فالكثابة الروائية التي تخاطب الذات وتعريها وترسم معالمها ودراميتها في حدود فضاء كتابي محدود من أصعب ما يكتب إذ يعتصر الفكر، ويؤثث بلغته لذلك فالرواية الجزائرية عرفت تحولاتها ومنعرجاتها خصوصا مع العشرية السوداء، فراحت تراهن على المصادقية، وهي تكتب عن جوهر الإنسان وتعري الواقع من زيفه وترسم معالم خصوصياتها المتفردة، ومع التطور وما يشهده العالم من تحولات برزت أسماء عديدة في الوقت المعاصر محاولة تبني مشروع الكثابة الواعية في محاولة منها تناول قضايا حساسة وجوهرية، فكان المتلقي كاتباً آخر يبحث عن خبايا النص وأسراره، ولأن أسئلة الذات في معاناتها هي صراعات تمس فئات متعددة في المجتمع فالذاتية تتجرد لتعانق الموضوعية وليلتحم الآخر بالذات للتشابه في الكثير من المحاورات ، فلو رجعنا للسان العرب لابن منظور (ت.711هـ تعريفه للذات نجده يقول: ذو اسم ناقص وتفسيره صاحب ذلك وتأنيثه هو: ذات (...)) وذاتُ الشيء حقيقته وخاصته¹.

كما ورد تعريفها في معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر، ما مفاده،

أنّ: "ذات: [مفرد]: ذوات: نفس "جاء ذات الرجل - جاء الرئيس ذاته"².

وعليه فالذات تدل على جوهر الشيء والمقصود بها روح الإنسان، ومن الناحية

الاصطلاحية نجد أنّ مفهوم الذات كان شغل الفكر العربي، وهذا بالفعل يعود للحالات التي

مرّ بها الواقع العربي من مشاكل ومعاناة من الحروب، سواء أكانت من النّاحية الفكرية ، أو السياسية والاجتماعية، ومن ذلك تتجلى أهداف الإنسان العربي الذي كان مسيرا تلقائيا لرحلة البحث عن الذات، وهذا ما تبناه كثير من الفلاسفة والمفكرين العرب، ومنه يقول ابن سينا: "إنّ النفس جوهر روحاني قائم بذاته"³ ولأن فكرة التميز حتمية لاختلاف الذات وجواهرها فإن الغموض سر الله في خلقه، فرغم معاشة نفس الأحداث فمصير كل إنسان يتمشى وفكرة مسابرة لها وفق ما تمليه عليه ذاته فيتلاحم الفكر والوجدان في سلسلة تشكّل رؤى جوهرها ما تكنه الذات في صراعاتها وتبني كيفية تفاعلها لذلك كانت الأزمات والتهيه عنوانا للوعي يتناقض وحقائق مغيبة، وعلى أساس ذلك كان حاضر الكتابة الحداثية، وهي تصوّر الاغتراب والتشظي تعبيراً عن مآهات حققتها لا عدالة الواقع وتناقضاته، وهذا ما كان ماثلاً في الرواية الجزائرية الماثلة بين أيدينا.

المطلب الثاني : مصير الاغتراب وتداخله في تأزم الذات وصراعاتها :

لقد كان الاغتراب مسارا متشعبا للذات، وهي تعلن ضياعها وتشتتها وترسم معالم التيه في عالم متكالب يحكمه التناحر وعدم المساواة، فكانت الغربة وما ينشعب عنها يحكمها الشعور المنافي لكل استقرار، فالغربة هي الشعور بكل ما لا يحقق السلام الداخلي، فيهدد فكرة الاستقرار ويبعث في النفس ضياعا وتشظيا فهي (تتمثل بالشعور الذي يمكن أن يشعر به الإنسان عندما يغادر مسقط رأسه وموطنه إلى مكان آخر، أو الشعور الذي يراود الفرد حين يضطر للانفصال أو النزوح عن مجتمعه)⁴ وبالتالي فالاغتراب يشمل المكان والزمن حينما تتعارض الرؤى مع قيم المجتمع، فيكون الانفصال ملاذا للاعتزال وهي ظاهرة عُرِفَت قديما منذ العصر الجاهلي إذ عانت فئة الصعاليك من الاغتراب نتيجة مخالفة قوانين القبيلة والتمرد عليها إذ نجد (بعض شعراء الجاهلية كانوا أعرق إحساسا من غيرهم، وهم الشعراء

الصعاليك الذين نبذتهم قبائلهم)⁵ وانعكس ذلك في أشعارهم وخلد التاريخ شعرهم المعبر عن حالة التشنت والضياع في محاولة منهم الانعتاق من قيود القبيلة التي شكّلت قيودا لحريتهم، كما عانى المسلمون في بدايات العصر الإسلامي من حالة الاغتراب إذ كانوا غرباء وهم يحاولون التمسك بعقيدتهم و(يذهب بعض الدارسين والباحثين إلى أن (الاغتراب) أساسه ديني، إذ ورد في الموسوعة الفلسفية العربية إن دلالات الاغتراب تعود في الأصل إلى الديانات السماوية الثلاث (اليهودية ، المسيحية ، فالإسلامية)⁶ وبالتالي فالمعتقد الديني شكّل رؤية لعزلة الذات، وهي تحاول تطبيق ما صدقه العقل والوجدان بعيدا عن كل منغصات مخالفة، وبالتالي كانت فكرة التمسك بالرؤى قناعة يرتكز عليها الاغتراب في كسر الحواجز المعرقة، كما تتجسد تلك المشاعر في الشعر الأندلسي (في الغربة المكانية التي عانى منها الشعراء، حين ارتحلوا مضطرين منها وإليها ولاسيما حين تفككت الدولة العربية في الأندلس إلى إمارات)⁷ وعليه فالغربة تشمل المكان بالبعد عنه أو الاغتراب فيه بالابتعاد عن منغصاته والبحث عن حلول للأزمات والصراعات الداخلية بعدا عن المجتمع وقيوده، وأمام ما يشكّله الاغتراب من متاهات لاستكشاف بواطن الذات في صراعاتها برزت الرواية الجزائرية المعاصرة مصوّرة منعرجا يبحث عن جوهر الإنسان، وبالتالي فقد استفادت من صنوف المعرفة الإنسانية الحديثة كالسينما والشعر، والتاريخ وعلم النفس وأدخلت في جوهر بنيتها الذات وأنثروبولوجيا المجتمع الجزائري، والصراعات الداخلية النفسية للإنسان، وهو يحاول التوازن مع العالم أمام ضعفه النفسي والبيولوجي⁸ وأمام ما تعيشه الذات المغترية من صراعات داخلية بطرح تساؤلات ومعالجة الواقع المتأزم كان للرواية الجزائرية حضورها الفاعل في معالجة قضايا العصر وتناقضات المجتمع بمختلف فئاته انطلاقا من أزمة المثقف وصراعه واغترابه وصولا لصراعات كل نفس تأمل بالأمني، فيخالفها الواقع راسما

لكل فرد قدره المسطر الذي يتطلب الرضا لكن النفس خلقت لتعيش قلقها ونقصها الداخلي وطموحاتها المؤجلة، فكان النص السردي المعاصر يشكل بتأثير اللغة مستودع الأسرار بمعانقة بواطن جوهر النفس في دراميتها وأزماتها العالقة لذلك كانت رواية اختفاء السيد لا أحد جنسا أدبيا يحتاج المساءلة واستكشاف مضمراته .

المطلب الثالث: في مقارنة مفهوم الأنساق الثقافية:

لقد كان اختيار مقارنة النقد الثقافي الأنسب علنا نصل بتتبع الأنساق لبعض المضمرات في رحلة المغامرة عن خفايا النص السردي بوصفه الأنسب لانفتاحه على العديد من المناهج التي استعنا منها بالتأويل والسيمااء فحسب ما أقره عبد القادر الرباعي فهو يمتلك الميزة الأنسب لخوض غمار الحفر عميقا إذ إنه (يعتمد أنساق النص، ويعتمد عبر القراءة الجادة إلى كشفها وجعلها قيما ثقافية)⁹.

ولما كان النقد الثقافي بمثابة آلة الضخ لتفجر الدلالات عبر حلقات متعددة من الانفتاح فقد كان النسق الحلقة الأقوى لاستكشاف المضمرات لإضاءة النصوص وخروجها من عتمة الغموض، فكان التسليح بجميع الخبرات شحنا للوقود لذلك يعد مفهوم النسق من المفاهيم الأساسية التي يركز عليها النقد الثقافي إذ يهتم هذا النقد بالوظيفة النسقية في نصوص الخطابات، ويستقصي اللاوعي النصي وهذا ما يخوله للتأويل¹⁰

و لأن النقد الثقافي يستعين بعدد الحقول المعرفية والمناهج لانفتاحه الموسوعي كان الأجدر بنا تتبع إجراءاته في قراءة الرواية المختارة المكتنزة دلاليا ، والتي لا يمكننا تتبع كل قضاياها لذلك كان الانتقاء الأنسب محاولين بذلك التركيز على أهمها، وبين التداخل والتشاكل للقضايا تبرز غايات الرواية الجزائرية المعاصرة في كون الإنسان محور الكتابة، فالذات في تناقضاتها ومسارها تسترجع وتعايش وتستشرف وفق خبراتها الإنسانية، وهذا ما

سنحاول الوقوف عنده في الجانب التطبيقي للرواية بانتهاء النقد الثقافي باعتباره استجلاء لأنساق النص "المضمرة التي تأبى الانصياع والمكاشفة أمام القراءة الجمالية"¹¹ ، ولا يتأتى ذلك إلا من خلال الاستعانة بمجموعة من المناهج والنظريات النقدية المعاصرة، كالتأويلية والتفكيكية والسيمائية والبنوية وغيره .

المبحث الثاني المقاربة النقدية : الأنساق المضمرة لاغتراب الذات وتشظيها في رواية اختفاء السيد لا أحد لأحمد طيباوي

المطلب الأول: العنوان جسر للبوح وغواية للجذب:

يعدّ العنوان مفتاحاً أولياً لسبر أغوار النص فهو (نظاماً سيميائياً ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة فك شفراته الرامزة)¹² وعليه فهو يشكل أول عتبة لخوض غمار المتن السردي لذلك سنحاول محاورته علنا نستكشف بعضاً من خباياه .

يطالعنا العنوان اختفاء السيد الأحد مشكلاً لنا تساؤلات فلسفية متعلقة بالوجود انطلاقاً من مقولة ديكرت أنا أفكر إذن أنا موجود، ولأن الاختفاء يستحضر الوجود فالغياب يشعل فتيل الحنين، فنحن لا ندرك قيمة التواجد إلا بالابتعاد، والاختفاء متعلق باسم معرف السيد ونحن نطلق السيادة لكل من نحترمه، لكن الفلسفة القائمة أن هذا السيد هو لا أحد فانعدام التسمية يحيلنا لفلسفة التواجد، فكي يكون لك حضورك الفاعل فيستلزم ذلك الإعلان عن كيائك وتواجدك، لكن العنوان يستقرنا فالسيد المعلن عنه لا موجود وبالتالي فالذات تعلن عن الغياب بدل التواجد، فيكون هناك تصريحاً عن التشظي والاغتراب، وعليه فقناع الهروب سبيلاً للبحث عن الاستقرار والحضور لتطرح جملة التساؤلات: هل الغياب يستوجب الحضور كآلية دفاعية للتعبير والبوح في السرد الروائي ؟ هل هناك ذات فاعلة حاضرة بكيونيتها أمام غياب ذات مغترية ؟.

تعلن جملة التساؤلات من خلال العنوان عن متن سردي فيه الكثير من الصراعات والاغتراب والتشظي، وهذا ما سنحاول محاورة مضمراته بالاستعانة بالمقاربة الثقافية لقراءة بعض المقاطع السردية.

المطلب الثاني مضمون الرواية اختفاء السيد لا أحد :

تدور أحداث الرواية حول صراعات وتناقضات الذات أمام فساد المجتمع وتشكل حلقات الرواية عبر عناوين لفصولها عن محكيات تحركها شخوص تروي ما في ذاتها وما تواجهه، وبالتالي فالسرد يرسم لنا دريا مشوقا ممتعا يعبر عن أزمة الإنسان وغربته وتستكشف أزمة المثقف في معترك الحياة، فالبطل إنسان مهزوم قادته الظروف للاعتناء بشيخ يدعى سليمان بن نوي، وهو مجاهد يسترجع في بعض مقاطع سردية حقبة زمانية للاستعمار في محاكاة لحاضر مخالف يعايشه الشيخ، وفي الاعتناء به ينسلخ البطل في عديد من الوجوه مصورا تناقضات كثيرة واحترافه لمهن متعددة لا تسد رمق جوعه في إشارة لمعاناة المثقف ورسمًا لعدم الاستقرار في فترة العشرية السوداء، وفي عتمة السرد المغيّب لملاحم البطل تعالج قضايا الفساد واستفحالها واغتراب العديد من الذوات المشكلة لوجه واحد هو السيد لا أحد ينقسم مضمون الرواية لقسمين إذ يعلن القسم الثاني عن موت الشيخ واختفاء السيد لا أحد ليحتد الصراع وتظهر ذوات كثيرة ومتعددة تسرد معاناتها في حلقات مفرغة تتضمن الاغتراب والضياع، فالقسم الأول الرئيسي معنون بالرجل الذي سرق وجهه ورحل تتدرج عناوين فرعية: مراوغة وتكالب وشفافية وابتذال وكلها تصب حول رجل دون ملامح يتخفى من فضول الآخرين يحمل هم المعيشة ويتابع حياة الشيخ بملل بين تأنيب للضمير ومواساة وحيرة ورغبة في التحرر من مسؤولياته المرهقة، أما القسم الثاني فيندرج ضمن عنوان رئيسي يشكل قفزة نوعية لتغيير الأحداث بموت الشيخ واتهام الشخص الملقب بلا أحد وفق وتيرة متسارعة من

الزمن والأحداث لتظهر شخصية الضابط رفيق ناصري، وتتعدد الشخصيات وتغترب الذوات وتشكل وجهاً واحداً هو السيد لا أحد ، فيكون القسم الثاني بعنوان رئيس الجحيم الذي يطل من النافذة تتدرج ضمنه عناوين فرعية وهي : مقدمات ساذجة ، أحدهم يخفي سرا ، بوصلة القلب ، مجرد أقدار ، رصيف ضيق .

المبحث الثالث : الأنساق المضمرة استكشاف للعبة التخفي والتجلي:

المطلب الأول: النسق الاجتماعي الأبواب المواربة لاستكشاف مظاهر الفساد:

حاولنا من خلال قراءة الرواية الماثلة بين أيدينا التعمق في دلالات بعض المقطعات السردية استكشافاً للأنساق المضمرة التي حملت بين خفاياها الكثير من المظاهر الاجتماعية المتفشية، والتي اخترنا منها القليل، ففي الرواية نجد حالات شعورية تتدرج ضمن سرد للمعاناة فمثلاً يقول السارد في إحدى صفحات الرواية (قضيت أياماً صعبة، متخفياً وجائعاً، نمت في محطة الحافلات بالخروبة لعدة ليال، استفزني عامل نظافة وأفلتت بصعوبة من الحراس، مناوشة عادية، لكن لم يعد لي أن أعود ، فكرت قبل ذلك في أن أركب أي حافلة اتجاه الصحراء أو الغرب أو الشرق، وليس لسطيف طبعاً، ثم تراجعت في ليلة مقمرة وصلت لحي يحاذي محطة القطار برويبة لا أعرف كيف وجدت نفسي هنا في هذا الحي بالذات، جائعاً ورائحتي نتنة ¹³) يومئ المقطع السردى لسرد يتمحور حول ذات تصوّر ضياعها واغترابها، فاخترت مسار التخفي معلنة عن الهروب من التواجد، فكأنما تطرح إشكالا في الحياة متعلّق بحقوق أن تكون موجوداً ، فغياب ضروريات الحياة البسيطة جعلها تنتكر في زي الخفاء كاسرة المتوقع ومنزاحة لصورة لا منطقية لم تجد مبرراً لتواجدها، فالأفعال المتمثلة في التخفي والجوع تعبّر عن ضنك الحياة وتشردّها، ويتجلّى انخفاض قيمة الذات مع عدم تحديد الوجهة، فالمكان صار مجهولاً مع غياب الوعي وصعوبة اختيار مكان

التوجه كان القرار بالعودة لحي محاذي محطة القطار بالروبية، فحينما تعلن الذات اغترابها تتشابه الأمكنة ويغيب الاستقرار وتحس الذات بالاضطهاد الاجتماعي إذ تصوّر المناوشات حالة استنكار يتمّ اللجوء إليها عند انعدام الحلول، فالضغوطات الاجتماعية تبعث في النفس حالة إنكار وضياح يتخللها صعوبة تأقلم ، فالبطل في القصة يفاجئنا بحالة تشظي تعلن عن تمزقها الداخلي الذي أوجبته ما آلت له النفس من جوع وتخفي وعدم استقرار، فكأنما الاغتراب مسلكا الهرب من الفساد الاجتماعي أين يغيب الإحساس بفئات المتشردين وتستفحل ظاهرة الطبقة ويتفكك المجتمع الذي يستوجب تماسك أفرادها .

وفي مقطع سردي آخر من الرواية نجد زاوية أخرى من العتمة المسكوت عنها وهي ظاهرة الطمع المستفحلة عند بعض فئات المجتمع، ففي إحدى صفحات الرواية قوله (طلب مني الوغد مبلغا كبيرا جدا رصيد الشيخ كبير، قال بنبرة مأكرة، وليس من العدل أن يكون لي وحدي. لم أخبره أننا مفلسان تقريبا، وتركت باب الطمع مفتوحا خطر لي أن أبدو أمامه حقا كمن يملك كنزا أو ثروة طائلة ليتعاون معي، اتفقنا أن يتولى كل شيء، وأنا بعيد، سيحفرون القبر ويشترون كفنا ، ويغسلونه .. هذه مهمتي، راح يطمئنني، ثم سألني متى أدفع له)¹⁴ يصوّر المقطع السردى حوارا بين شخصين ويتبدى الموضوع المطروح في مساومة علنية تبين استفحال ظاهرة الطمع، فالمبلغ المطلوب مقابل خدمة الدفن كبيرا ومبرره الثروة المملوكة للشيخ، ووسط صراع النفس الأمانة بالسوء تتكشف سخرية مقبلة، فالبطل يعلن حالة الإفلاس لكنه يترك الباب مواربا للطمع من أجل تحقيق غاية الدفن والذي أظهر فيه امتعاضا من المساوم الطماع خوفا من عدم حصوله على المال، وفي ظل هذا الصراع تعيش الذات المسالمة تأزمها واغترابها فلا حلول دون مال يسد رمق الطماعين وهي ظاهرة استفحلت ونخرت المجتمعات، فكان الداء وتعرقلت مصالح الكثير جراء استفحالها .

وفي هذا المقطع يختفي البطل تاركا للمتلقي فسحة الإبحار وتقمص عديد الشخصيات المعاشة في المجتمع التي لم تجد أمام اغترابها حلوًا للعيش بسلام وسط مجتمع تغيب فيه العدالة الاجتماعية، ويصير المال سيدا لمن لا سيادة له يساوم ويبتز الطماع محققا مكاسب مادية ضاربا عرض الحائط الإنسانية وتأنيب الضمير، وهي آفات اجتماعية استفحلت في المجتمعات لتخلق في زاوية أخرى ذواتا تعاني الاغتراب لانعدام سبل التأقلم معها، وعليه صوّرت بعض المقاطع السردية في الرواية ظواهر اجتماعية خطيرة انجر عنها الضياع والاغتراب، وهي بالموازاة تصنع وعيا مضادا مقاوما بتقمص التخفي لتعري التناقضات الاجتماعية وتجعل زوايا للنور تسلط على فئات من المجتمع غرضها تحقيق المصالح وفقط.

المطلب الثاني النسق الثقافي: صورة المثقف بين الوعي المناهض والحقيقة البائسة :

ينجلي المقطع السردى المائل بين أيدينا عن حالة تذرر للمثقف الذي يعلن عن قرار غير مستحب إذ يقول (وجدت نفسي مجبرا على بيع كتبي إلى باعة الكتب في ساحة البريد المركزي لأتدبر أموري. كنت قد صرفت آخر دينار من المبلغ الذي قبضته مقابل بيع حاسوبي قبل ذلك . لم يعد لدي ما يمكن بيعه دون خجل)¹⁵

يعبر فعل الإجبار المصرح به من طرف بطل الرواية عن حتمية غير مستحبة، فأغلى ما يمتلكه المثقف المعاصر هي كتبه وحاسوبه لكن الذات قررت في ظل حاجتها التي تعيشها وهي مغترية لم تجد مكانتها المستحقة ضرورة بيع كتبها لباعة يعرضونها في الشوارع ما يدل أن المبلغ زهيد لا يكاد يسد أبسط مستلزمات الحياة، وبالموازاة من ذلك فالحاسوب أيضا تم بيعه سابقا ما يدل عن حالة إفلاس وأوضاعا مزرية تعيشها الذات الغير مستقرة ، فالكرامة تتحقق بسد الحاجات ونيل المكانة المستحقة، فلكل مقام مقال كما يقال ولكن الوسط

الاجتماعي يعكس صورة مجتمع يهمل المثقف ويجعله في حالة اغتراب وحيرة وهو يطارد وهم الحصول على ما يضمن عيشه، وعليه فصورة السيد لا أحد المغيبة تفتقد اسما وهوية وبالتالي فهي تمثل انعكاسا لكل مثقف تمّ تغيبه عن دوره الفاعل، ولم يكن له عمله المحترم فبات يعيش كابوس البطالة ونظرات أفراد المجتمع التي لا ترحم .

وفي مقطع سردي آخر من الرواية تتباين أزمة المثقف معبرة عن وجوه عديدة كلها تتقاطع في اغتراب المثقف ومعيشته الضنكة في ظل مجتمع تتصارع فيه المصالح إذ يقول السارد البطل في إحدى المقاطع السردية (اشتغلت زبالا لثلاث سنوات، لم يشفع لشريد مثلي مستواه الجامعي ولا كونه إنسانا، واستغني من استطاع أن يفعل ذلك نسيت تقريبا كل ما تلقينته في الجامعة، ولقنتني الظروف دروسا أكثر رسوخا. زبال من الباطن، يتقاضى أحدهم الراتب ويمنحني جزءا منه. حملت القمامة فوق الحمير في أزقة القصبة الضيقة ، وأكلت بقايا طعام كنت أجده في المزابل ، تقيأت أول مرة ثم تعودت عليه ، نسيت كرامتي للأبد، لا معنى للكرامة وأنت جائع . غريزة البقاء أقوى)¹⁶

يومي المقطع السردية عن صدمة مباغته مشفرة تتخر الواقع وتعييه، فالجامعي المتحصل على شهادة كفيلة بضمان كرامته يشكّل وجها مخالفا لم تتحدد وجهته ولا هويته، فالوظيفة التي شغلها البطل تتمثل في كونه زبالا لمدة زمنية تقدر بثلاث سنوات، وبالتالي فهي مدة طويلة شكّلت منعرجا حاسما في مساره كما أن وضعيته الموصوفة بالشريد حملت غربة مكانية لها أبعادها في تأزم صورته بوصفه مثقفا وبالمقابل بالإقرار بتعلم دروس الحياة هي عبر تؤخذ من معترك ما يعايش، لذلك فالبطل يصرح بتهميشه من خلال صورة الحرمان التي جعلته يفقد ذاته ويحس باغترابها لأن البطل لا يحمل اسما ولا مستقرا ، وعليه فالصورة المغيبة تمثل عينات جماعية لفئات عديدة تعاني في المجتمع لأنها لم تتحصل على عملها

المناسب ولا مكانتها، فكانت تغترب وهي تمارس أدوارا لا تناسبها فأحلامها مهشمة وما زاد الطينة بلة هو عدم تقاضي الأجر المناسب لعمل الشقاء فهناك من يتقاضى دونه في إشارة لسياسة التلاعب والاستغلال وفي خفاء الحقائق ينكشف النور، فالمثقف رغم الغياب واعي يدرك ما يحمله المجتمع من تناقضات وكواليس يؤمن بمنطق القوة الظالمة، وأمام ما تسرده الذات الملقبة بلا أحد تتشظى وجوه عديدة لفئة المثقفين ليتمّ التسليط الضوء عن البطالة والاغتراب الذي تعيشه هذه الفئة، فغريزة الجوع تومئ لكل أشكال الحرمان أم المزابل فيمكن تصنيفها بكل ما يحمله المجتمع من معاملات دنيئة ترفع المسيء وتخفض المحق، وبين هشاشة للهدم لا يعول عليها في البناء يحاول المثقف رفع الغبن عنه بتعرية الفساد وفضح ما يستتر من خفايا تحمل حقائق مؤلمة.

المطلب الثالث النسق النفسي تشظي الذات ودهاليز اغترابها :

تشكل الذات هويتها بحضورها الفعلي وباستحقاقها المستمد بثقتها وامتلاك زمام أمورها وفق قوانين تحكمها واجبات وحقوق ما يعزز السلام النفسي الداخلي، فتهدأ وتحس بالاتزان لكن في ظل ما يعتري الحياة من تناقضات وصدمات نفسية تضطرب في الأغلب وتحس بالاغتراب والتشتت والضياع وهذا أمر عادي، فالعالم الخارجي هو الملاذ والمستقر وتتمحور الرواية الماثلة بين أيدينا حول بطل يشكل وجها لوجوه متعددة متداخلة كان التشويق في تداخل الشخصيات مسارا سرديا زاد من قابلية القراءة وأشعل فتيل المغامرة للبحث في دهاليز ذات متعددة مست الكثير من الشخصيات وتداخلت معها وباتت البؤر السردية مفترقات امتزج فيها الصراع والاختفاء بوصفه لعبة رسمت طريقا للدخول لمسارب مظلمة في المتن الروائي عالجت الكثير من القضايا، وقد عبّرت الكثير من المقاطع السردية عن نفسية مغتربة غاب فيها التواجد ولكن حكمها وعي الحضور فرغم الضياع والتشتت، فالذات استطاعت أن تعري النفس البشرية وتكشف الكثير من دهاليزها كما عبّرت عن معاناة الواقع في ظروف شهدت مأساوية العشرية السوداء، فكلما اشتدت عقدة التأقلم مع ما لا يناسب

الشخصية كانت تواجه كل مرة التحديات فكان صراع الحياة والموت وجها لوجه ومع اختفاء السيد لا أحد تتأزم الأحداث أكثر وتظهر شخصيات معلومة لكنها تحمل من التناقضات والتمزقات ما يحيل للاغتراب والضياح ، فبين الخيوط الرفيعة وحدتها تتنازع الأحلام وتظهر الصور الخفية لنفوس فيها من كسر الخواطر والتعثرات ما يتخفى عن الجميع، وبين تشظي الذات وعنفوانها تبقى النفس لها من خصوصياتها ما يصنع تميزها، وسأخذ من الرواية بعض المقاطع السردية المعبرة عن ذلك يقول السارد (لا تقبل الحياة بمنطق اللاعب الاحتياطي، لكني صرت كذلك بالنسبة لمراد. يوفر لي مأوى وأكون بالقرب من والده، حارسا، مرافقا، وبديلا عنه هو).¹⁷ يومئ المقطع السردى عن حالة نفسية مشتتة تعيش دور البديل وتدرك في قرارات نفسها استحالة تبادل الأدوار، فالكل في هذه الحياة له أدواره وفق حقوق وواجبات تستلزم تكامل الأدوار في الحياة، ولذلك فتخلي مراد عن دوره في التكفل بوالده وإسناده لشخصية بديلة يصور هشاشة نفسية مضطربة لا ترضى بدور البديل لكن الظروف كانت أقوى منه، فعملية إعطاء ضروريات الحياة من أجل البقاء وخدمة والده في المقابل تحمل مقايضة كبت للحريات وممارسة سلطة الخدمات المكفولة برعاية مسن يتطلب الكثير من الرعاية والاهتمام، ولذلك فالبطل الفاقد لتوازنه النفسي وسط ضغوطات تلزمه بمراقبة شيخ طاعن في السن خلقت في نفسية السارد البطل اغترابا عن ذاته التي يراها مقيدة في ظل تخلي المسؤول وخلق البديل لذلك فعملية تقلب الأدوار تشكل أزمة نفسية جعلته يحس بتبعيته، وهو يمارس مهام تحت طائلة الإلزامية التي تقتضي ضرورة حصوله على ما يعيله، وبالمقابل من ذلك نأخذ مقطعا سرديا آخر يقول السارد البطل فيه (ما كانت حاجتي بالحرية ؟ سؤال طرحته متأخرا بندم غير قليل، في الليلة ذاتها التي قررت فيها استرجاع حريتي بأي ثمن. لم أكن مذنبا ولا مريضا، كنت متأكدا من نفسي وهذا يكفي. أوهمتهم بذلك لأنجو بنفسي، وقعت في مأزق لعين آخر. لا أريد أن أستعيد الحادثة ولا كيف وجدت نفسي مضطرا أن أقبع في مستشفى للمختلين نفسيا مثل مريض لا يرضى شفاؤه، لا شأن لأحد بذلك، هذا سر بيني وبين القدر)¹⁸ يبدو المونولوج مؤلما بتفاصيله فبطل الرواية

يحس بالقيد المتمزمت إذ يصدمننا بسؤال جوهري إشكالي متعلق بما الحاجة بحريته ؟ وهو بذلك يكسر حاجز الخوف لاستكشاف الغاية من التواجد فأن تكون حرا معناه العيش بكرامة، ولذلك فدائرة التبعية بمهام ليست من أدواره شكلت له اغترابا عن ذاته ، وعليه ففكرة النجاة والهروب بمثابة حاجز للأمان، وما الرغبة في التحرر من مسؤوليات الشيخ إلا اعتاقا من سجن العبودية التي أوكلت له مهام تحمل حتمية الإنجاز، وهي ليست من اختصاصه ما جعل هناك جروح نفسية تنمو داخليا تماهت فيها الشخصية وفقدت أهلية التحرر ضد كل الالتزامات، ولعل الأفكار التي تراود البطل السيد لا أحد هي أسئلة الإنسان الجوهري لاستكشاف غايات وجوده ومعرفة حقوقه وواجباته، وفرز كل ما يشكل قيودا مكبلة أقرتها حتمية الظروف الظالمة فباتت تمثل عوائقا للهدم لا البناء، ولذلك فمحاورات النفس والسعي من أجل الحرية والتبعية ما هي إلا صورة لتأزم النفس وعذاباتها ، وهي تحاول النأي عن كل ما يعذبها .

وفي ختام مقاربتنا لبعض الأنساق المضمرة يمكننا القول :

- صوّرت الرواية وجوها متعددة لشخصية فاقدة هويتها، فتداخلت الشخوص وتآزمت فكانت تعرية فساد المجتمع من خلال طرح الكثير من القضايا الشائكة.
- عالجت الرواية اغتراب الذات وهي تواجه مصير الضياع والتشتت، فحاولت ملامسة جوهر الإنسان من خلال البحث عن الكرامة والحرية.
- تداخلت الأحداث وتشابكت في الرواية مصورة أزمة المثقف في مواجهة مصيره واغترابه عن واقع يؤمن بسيادة المال والمصالح .
- حاورت العديد من المقاطع السردية كوامن النفس وتناقضاتها وهي تصارع قيم الخير والشر، فكان الاغتراب أحيانا دافعا لمواجهة الأزمات التي كانت صورة جامعة لفئات المجتمع.

الهوامش:

- ¹ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم: لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط6، 2003م. ج:06، ص:09-11. (مادة ذو)
- ² أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب نشر، توزيع، طباعة، القاهرة، ط1، 2008م. م:01، ص:800. (مادة ذو)
- ³ جمال رجب سيدي: نظرية النفس بين ابن سينا والغزالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ط، 2000م. ص:35
- ⁴ ينظر عبد القادر عبد الحميد زيدان، التفرد والغربة في الشعر الجاهلي، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2003م، ص7
- ⁵ أحمد علي الفلاحي، الاغتراب في الشعر العربي القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية ونفسية)، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2013 م، ص34
- ⁶ المرجع نفسه، ص 17
- ⁷ المرجع نفسه، ص 44
- ⁸ ينظر غالي شكري، أقواس الهزيمة وعي النخبة بين المعرفة والسلطة، دار الفكر، ط1، 1990، ص 79-80
- ⁹ عبد القادر الرباعي، جماليات النقد الثقافي نحو رؤية الأنساق الثقافية في الشعر الأندلسي دراسات أحمد جمال المرازيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، لبنان، 2009، ص17
- ¹⁰ ينظر عبد الرحمان الكيدر، الأنساق الثقافية المضمرة في الأمثال العربية القديمة، مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية، غ 68، ص11
- ¹¹ ينظر متلف آسيا، النقد الثقافي بين الغواية وأفق المجازفة في تشكيل خطاب نقدي جديد، مجلة دراسات معاصرة، مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة، جامعة تسمسليت، الجزائر، مج 5، ع2، 2021م، ص335
- ¹² بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة، ط1، عمان، الأردن، 2001م، ص 57
- ¹³ أحمد طيباوي: رواية اختفاء السيد لا أحد، منشورات الضفاف، بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2019م، ص26
- ¹⁴ الرواية، ص 51
- ¹⁵ الرواية، ص17
- ¹⁶ الرواية ص 36
- ¹⁷ الرواية، ص 16
- ¹⁸ الرواية ص 22